رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ
النَّباتيُّ اللَّامعُ، والطَّبيبُ المُجاهِدُ
(573 ـ 639هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

أَبو الفَضْلِ، وقيلَ: أَبو مَنصور، رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ، عَالِمُ النَّباتِ، والطَّبيبُ المُجاهِدُ، الَّذِي صاحَبَ ورافَقَ سَلاطينَ بَني أَيوب، وحازَ عَلى ثِقَتِهِمُ المُطلَقَةِ بِعلمِهِ وإِخلاصِهِ ووَفائِهِ، وكانَ طَبيبَهُمُ الخَاصَّ ومُستَشارَهُمُ المُقَرَّبَ الَّذِي لا يُشَكُّ في نَواياهُ الحَسَنَةِ لِحرصِهِ عَلى إِفادَةِ النَّاسِ، وصُنعِ الخَيرِ لَهُمْ، حَيثُ كانَ يُعالِجُ النَّاسَ ويُطَبِّبُهُمْ مَجَّاناً مِنْ غَيرِ مُقابلٍ.

وفي الحروبِ المُتَتابِعَةِ الَّتِي شَنَّها الصَليبيونَ الفِرَنجَةُ عَلى سَواحِلِ بِلادِ الشَّامِ، كانَ أَبو الفَضلِ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ يَخرجُ مَعَ الجيوشِ الإِسلاميَّةِ لمُحارَبةِ الصَّليبيِّينَ عَلى الثُّغورِ في المُدنِ السَّاحليَّةِ: صور وعَكا ويافا والقُدسِ، لِيُعالِجَ الجُنودَ الجَرحى والمُصابينَ، ولِيُشارِكَ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، ولِيدحرَ الغُزاةَ عَنْ بِلادِهِ، وكانَ يَرى أَنَّ عَلى العالِمِ

زَكاةً يَجِبُ إيفاؤها للهِ ﷻ، وهيَ أَنْ يُعطي الآخرينَ ويُفيدَهُمْ مِنْ عِلمِهِ مِنْ غَيرِ مُقابِلٍ، وهَذا يَعني زَكاةَ العِلمِ.

كَما حَرصَ عَلى التَّدقيقِ في العِلمِ عِندَ أَخذِهِ مِنْ مَصادِرِهِ، فَكانَ لا يَقبلُ شَيئاً ولا يُثبِتُهُ إلَّا بَعدَ المُقارَنةِ والتَّمحيصِ ومَشورَةِ العُلماءِ مِنْ أَعيانِ عَصرِهِ، ولَهُ في هَذا المَنهَجِ إسْهاماتُهُ العَظيمَةُ في تَصويبِ الأَخطاءِ والأَغلاطِ في المُصَنَّفاتِ الَّتِي وضَعَها بَعضُ المُصَنِّفينَ قَبلَهُ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، فَقَدْ رَدَّ عَلى الأَخطاءِ والأَغلاطِ الَّتِي لاحَظَها في كِتابِ البَلغاريِّ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ وجَمَعَها في كِتابٍ أَسماهُ: «الرَّدَّ عَلى كِتابِ التَّاجِ البلغاريِّ في الأَدويَةِ المُفرَدةِ».

ورَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ رَحلَ كَغيرِهِ مِنَ عُلماءِ النَّباتِ العَربِ في سَبيلِ الاستزادَةِ بالمَعلوماتِ عَنِ النَّباتاتِ المُختَلِفَةِ، وعَنِ الأَدويَةِ المُفردَةِ ومُعايَنَتِها في مَنابِتِها. فَزارَ عِدَّةَ بُلدانٍ وأَمصارٍ، واستَفادَ وأَفادَ واطَّلَعَ عَلى ما مَكَّنهُ عِلمُهُ الإحاطَةَ بِخصائِصِ الأَعشابِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ، ورُبَّما هَذا ما جَعلَهُ مَوضِعَ ثِقَةٍ مِنْ قِبَلِ السَّلاطينِ والأُمراءِ.

فَمَنْ هُوَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ رَشيدُ الدِّينِ ابنُ أَبي الفَضلِ بنِ عَليٍّ الصُّوريُّ، المُلَقَّبُ بِأَبي الفَضلِ. وِلدَ في مَدينَةِ صور في جَنوبِ القطرِ اللُّبنانيِّ الشَّقيقِ سَنَةَ (573) هجريَّةً، ونُسِبَ إِليها.

وتُعتَبَرُ مَدينَةُ صور مِنْ أَقدَمِ المُدنِ الموجودَةِ عَلى سَواحلِ بِلادِ الشَّامِ المُطِلَّةِ عَلى

البَحرِ المُتَوسطِ، ويُقالُ: إنَّها سُميَتْ بِهذا الاسمِ نسبَةً إلى امرأةٍ مَشهورَةٍ مِنَ العَربِ قَديماً.

وذَكَرَ النُوَيريُّ في كِتابِهِ «نِهايَةِ الأَرَبِ في فُنونِ الأَدَبِ»: إنَّ المَلكَ الفارسيَّ بيو راسب بنَ أَروندَاسبَ الَّذِي مَلكَ الأَقاليمَ السَّبعَةَ بَعدَ عَهدِ نَبيِّ اللهِ نوحٍ عليه السلام بَنَى مَدينَةَ بابِلَ وصور ودِمَشقَ مَعاً.

ولَعبَتْ مَدينةُ صور دوراً هامّاً في التَّاريخِ لِمَوقِعها المَنيعِ عَلى سَواحِلِ بلادِ الشَّامِ، وذُكِرَتْ كَثيراً في أَدبياتِ الشُّعوبِ الَّذِينَ مَرُّوا بِالمَنطِقَةِ كالرُّومانِ والإغريقِ.

كَما احتَلَها الصَّليبيونَ أَكثرَ مِنْ مَرَّةٍ، وجَعلوها مَقَرَّ قِيادَتِهِمُ العَسكَريَّةِ عَلى سَواحلِ بِلادِ الشَّامِ مع مَدينَةِ عَكَّا. وكانَ العَربُ المُسلمونَ يُحَرِّرونَها مِنْ أَيديهِمْ ويجلونَهُمْ عَنها، وكانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ تَتَحرَّرُ فيها مَدينَةُ صور مِنْ أَيديهِمْ عِندَما أَجلاهُمُ المَلكُ النَّاصِرُ صَلاحُ الدِّينِ الأَيوبيُّ مِنْ كافَّةِ المُدنِ الَّتِي احتَلّوها في بِلادِ الشَّامِ.

وتُعتَبرُ مَدينَةُ صور ـ مَسقَطُ رأسِ رَشيدِ الدِّينِ ـ واحدَةً مِنَ المُدنِ العَربيَّةِ الَّتِي قَدمَتْ لِلعالَمِ العَربيِّ والإسلاميِّ كَوكَبَةً نادرَةً مِنَ العُلماءِ والشُّيوخِ الَّذِينَ فاضَتْ شهرَتُهُمْ في الآفاقِ، فَمنْ عُلمائِها:

الفَيلسوفُ المَشهورُ قَديماً فَرفَيوسُ الصُّوريُّ، والشَّاعرُ عَبدُ المُحسنِ الصُّوريُّ، والعالِمُ سَعيدُ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ الحَسَنِ تِلميذُ عالِمِ البَصرةِ الحَسَنِ البَصريِّ، وأَحمَدُ بنُ عَطاءٍ الرُّذياريُّ الصُّوفيُّ، وكانَ فَقيهَ الدِّيارِ الشَّاميَّةِ في وقتِها، وعالي بنُ عُثمانَ بنِ جُنيٍّ النَّحويُّ

المَعروفُ، وكانَ عَالِماً فاضِلاً كَأَبيهِ؛ أَقامَ في صور وماتَ ودفنَ فيها، وأَبو الفَرجِ الأَرمنازيُّ خَطيبُ صور ومُحَدِّثُها ومُفيدُها، وكافورُ الصُّوريُّ الَّذِي رحلَ في آخرِ عمرِهِ إِلى بَغدادَ وسَكنَ فيها حَتَّى ماتَ، والعابِدُ الزَّاهدُ إِبراهيمُ بنُ الأَدهَمِ.

ومِنَ العُلماءِ الَّذِينَ نَزلوا في صور وحَدَّثوا فيها: العالِمُ الكَبيرُ أَبو الفَتحِ الرَّازيُّ، والإِمامُ أَبو بَكرٍ الخَطيبُ البَغداديُّ، والفَقيهُ أَبو زَكريا ابنُ الخَطيبِ البَغداديُّ.

وفي مَدينَةِ صور نَشأَ وتَرَعرَعَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ، وتَلَقَّى العِلمَ عَلى يَدِ عُلمائِها وشيوخِها في صور، ثُمَّ انتَقَلَ وأَقامَ في دِمشقَ.

❁ ❁ ❁

بَعدَ انتِقالِهِ وإِقامَتِهِ في دِمَشقَ، طافَ رشيدُ الدِّينِ عَلى عُلمائِها وأَطِبَّائِها يَنهَلُ مِنْ عُلومِهِم ومَعارِفِهِمْ. وقَرأَ كُتُبَ جالينوس، وكِتابَ ديسقوريدس، وما صَنَّفَهُ العُلماءُ قَبلَهُ. واشتَغَلَ بِعلمِ النَّباتِ والأَدويَةِ المُفرَدةِ عَلى يَدِ مُوَفَّقِ الدِّينِ عَبدِ اللَّطيفِ بنِ يوسُفَ، ومُوَفَّقِ الدِّينِ أَبي العَبَّاسِ بنِ أُصَيبعَةَ، فَكانَ مُوَفَّقُ الدِّينِ عَبدُ اللَّطيفِ بنُ يوسُفَ عالِماً وطَبيباً ولُغَوياً مَشهوراً، أَقامَ في دِمَشقَ يُعَلِّمُ النَّاسَ صِناعَةَ الطِّبِّ، ونالَ شُهرَةً كَبيرَةً في عَهدَ السُّلطانِ النَّاصِرِ صلاحِ الدِّينِ الأَيوبيِّ، فَعَيَّنَهُ صَلاحُ الدِّينِ مُدَرِّساً في الجامِعِ الأُمَويِّ، فَكانَ مَجلسُهُ يَغصُّ بِالنَّاسِ وبِطَلَبَةِ العِلمِ الَّذِينَ كانوا يَقصدونَهُ مِنْ كافَّةِ الأَنحاءِ.

وبَعدَ وفاةِ السُّلطانِ النَّاصِرِ صلاحِ الدِّينِ الأَيوبيِّ، لاقَى مُوَفَّقُ الدِّينِ عَبدُ اللَّطيفِ بنُ يوسُفَ العِنايَةَ والاحترامَ مِنْ أَبنائِهِ وخُلفائِهِ، وبِشَكلٍ خاصٍّ مِنَ المَلكِ العَزيزِ.

لَقَدِ استفادَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ مِنْ عِلمِ مُعَلِّمِهِ عَبدِ اللَّطيفِ بنِ يوسُفَ، ومِنْ تَفنيدِهِ لأَخطاءِ جالِينوسَ، وحَصَّلَ مِنهُ الكَثيرَ مِنْ خبراتِهِ العَمليَّةِ في صِناعَةِ الطِّبِّ والعَقاقيرِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ والمُرَكَّبَةِ.

وكانَ مُوَفَّقُ الدينِ أَبو العبَّاسِ بنُ أَصَيبعَةَ طَبيباً ومُؤَرِّخاً وعالِماً أَديباً ومُتَكَلِّماً يُقيمُ في دمَشقَ ويُمارِسُ مهنَةَ الطِّبِّ، ولَهُ مُؤَلَّفٌ هامٌّ في تاريخِ الطِّبِّ وهوَ «عُيونُ الأَنباءِ في طَبقاتِ الأَطِبَّاءِ».

أمضَى مُوَفَّقُ الدِّينِ حَياتَهُ مَتَنَقِّلاً ما بينَ صَرخَدَ ودمشقَ، وقَدْ أَخذَ عَنهُ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ الكَثيرَ مِنْ مَعارِفِ الأَولينَ في علمِ النَّباتِ وصِناعَةِ الطِّبِّ، غيرَ أَنَّ رَشيدَ الدِّينِ الصُّوريَّ قَدْ فاقَهُ عِلماً وخبرَةً في ذَلِكَ.

وفي ذاتِ مَرَّة أَهدَى رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ ابن أصيبعَةَ تَأليفاً يَحتَوي عَلى فَوائِدَ ووَصايا طبيَّةٍ، فَأُعجِبَ بِها ابنُ أُصَيبعَةَ، فَكَتَبَ إِليهِ مِنْ صَرخَد إِلى دِمشقَ يقولُ:

لَعِلمُ رَشيدِ الدِّينِ في كُلِّ مَشهَدِ ... مَنارٌ عَليٌّ يَأتَمُّهُ كُلُّ مُهتَدِ
حَكيمٌ لَديهِ المَكرُماتُ بِأَسْرِها ... تَوارَثَها مِنْ سَيِّدٍ بَعدَ سَيِّدِ
حَوى العِلمَ عَنْ آبائِهِ وجُدودِهِ ... فَذاكَ قَديمٌ فيهِ غَيرُ مُجَدَّدِ
تَفَرَّدَ في ذا العَصرِ عَنْ كُلِّ مُشَبَّهٍ ... بَخَيرِ صِفاتٍ حَصرُها لَمْ يُحَدَّدِ
أَتَتني وصاياهُ الحِسانُ الَّتِي حَوَتْ ... نَثيرَ كَلامٍ كُلِّ فَضلٍ مُنَضَّدِ
فَهدى إِلى قَلبي السُّرورَ ولَمْ يَزَلْ ... بِإِحسانِهِ يُسدي لِمثلي مِنْ يَدِ

وَجـدتُ مـا أَرتَـجـيـهِ وإِنـنَّـي بِـهـا أَبـداً فـيـمـا أُحـاوِلُ مُـقـتَـدي
ولا غَـرو مِـنْ عِـلـمِ الـرَّشـيـدِ وفَـضـلِـهِ إِذا كـانَ بَـعـدَ اللهِ في الـعِـلـمِ مُـرشـدي

❁ ❁ ❁

في دِمشقَ ذاعَ صيتُ رَشيدِ الدِّينِ الصُّوريِّ، فَاجتَباهُ المَلِكُ العادِلُ لِنَفسِهِ لِيَكونَ طَبيبَهُ الخاصَّ وقَرَّبَهُ إِليهِ ورافَقَهُ في بَعضِ غَزواتِهِ وأَسفارِهِ وحروبِهِ ضِدَّ الصَّليبيينَ في القُدسِ وفي سَواحِلِ بِلادِ الشَّامِ، كما رافَقَهُ إِلى مِصرَ وأَقامَ فيها فَترَةً مِنَ الزَّمَنِ.

بَعدَ وفاةِ المَلِكِ العادِلِ عَملَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ مَعَ ابنهِ المَلكِ المُعَظَّمِ عيسى صاحِبِ دِمَشقَ، ولاقَى لَديهِ حظوَةً عَظيمةً، فَقَدْ كانَ المَلِكُ المُعَظَّمُ عالِماً فَقيهاً، وكانَ في غايَةِ ما يَكونُ مِنَ الكَمالِ في عدَّةِ علومٍ وفُنونٍ، وكانَ رَجلَ بني أَيوب وعالمَهُمْ ومَحاسِنُهُ أَشهرُ مِنْ أَنْ تُذكَرَ، فهو المُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ، الغَازي النَّحويُّ؛ الَّذي تَفَقَّهَ مِنذُ صِغَرِهِ عَلى مَذهَبِ أَبي حَنيفَةَ النُّعمانِ، وحَفظَ تاريخَ المَسعوديِّ، وقَرأَ الأَدبَ والنَّحوَ عَلى عالِمِ دمَشقَ تاجِ الدِّينِ الكَنديِّ، وكانَ شُجاعاً مقداماً كَثيرَ الحَياءِ، حَسَنَ السِّيرَةِ، مُحِباً لِلعلمِ والعُلماءِ.

ويُحكَى عَنهُ أَنَّ أَحدَ عُلماءِ دمشقَ، ويَقالُ لَهُ «ابنَ العَنينِ» قَدْ مَرضَ مَرضاً شَديداً، فَكتَبَ إِلى المَلكِ المُعظَّمِ:

انـظُـرْ إِلـيَّ بِـعـيـنِ مَـولـى لَـمْ يَـزلْ يُـولـي الـنَّـدى وتَـلافَ قَـبـلَ تَـلافـي
أَنـا كَـالَّـذِي أَحـتـاجُ مـا يَـحـتـاجُـهُ فَـاغْـنَـمْ دُعـائـي والـثَّـنـاءَ الـوافـي

فَحضرَ إِليهِ المَلكُ المُعَظَّمُ يَصحبُهُ الطَّبيبُ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ، وأَحضَرَ المَلكُ مَعهُ ثَلاثَمئَةَ دينارٍ، ودَفَعها إِلى ابنِ العَنينِ وقالَ لَهُ:

أَنتَ الغارمُ، وأَنا الغَانِمُ، وهَذِهِ الصِّلَةُ.

وبَعدَ وفاةِ المَلكِ المُعَظَّمِ، خَلفَهُ ابنُهُ المَلِكُ الناصرُ داؤدُ بنُ عيسَى المُلَّقَبُ بِصلاحِ الدِّينِ، فَلَقيَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ مِنهُ ما كانَ يَلقاهُ مِنْ أَبيهِ مِنْ حَفاوَةٍ وتكريمٍ؛ لأَنَّ المَلِكَ النَّاصِرَ كانَ كَأَبيهِ عالِماً فَقيهاً فَاضِلاً مُناظِراً ذَكيّاً، لَهُ اليَدُ البيضاءُ في الشِّعرِ والأَدبِ، قَدْ حَصَّلَ طَرفاً جَيداً في العُلومِ في دَولَةِ أَبيهِ، وأَحَبَّهُ أَهلُ دِمَشقَ كَثيراً، وكانَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ أَحَدَ العُلماءِ الَّذِينَ تَلقَّى النَّاصِرُ العِلمَ عَلى أَيديهِمْ، فَحفظَ المَلِكُ النَّاصِرُ لَهُ هَذا الأَمرَ فَعَيَّنَهُ رَئيساً عَلى الأَطِبَّاءِ في دَولتِهِ.

❋ ❋ ❋

كانَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ يُرشِدُ أَطِبَّاءَ عَصرِهِ إِلى الإِخلاصِ في مِهنَتِهِمْ، وإِلى التَّحلي بِخلُقِ الصَّبرِ في عِلاجِ المَرضَى، وكَذَلِكَ إِلى التَّحَقُّقِ مِنَ الأَدويَةِ المُفردَةِ والتَّأَكُّدِ مِنْ خَصائِصِها، وتَفَرَّغَ في آخرِ حَياتِهِ لِلتَّأليفِ والتَّصنيفِ والتَّجوالِ في البُلدانِ والأَصْقاعِ لِمُعايَنَةِ النَّباتاتِ، ولِيَصفَها في بيئَتِها بِأَلوانِها وخَصائِصِها الطَّبيعيَّةِ في أَيَّامِ نَضارَتِها وجَفافِها، وكانَ يُدَوِّنُ ذَلِكَ ويَكتُبُهُ.

كَما كانَ يَصحَبُ مَعَهُ رَساماً يَقومُ بَرسمِ النَّباتاتِ بِأَلوانِها الطَّبيعيَّةِ بِأَصبِغَةٍ خَاصَّةٍ. وقَدْ

أَشادَ العُلماءُ والباحِثونَ بِأسلوبِهِ هَذا الَّذِي تَفَرَّدَ بِهِ عَنْ عُلماءِ النَّباتِ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِ، فَهوَ أَوَّلُ مَنْ وصَفَ النَّباتاتِ مَعَ صورَتِها ورَسمِها.

وهوَ أَوَّلُ مِنْ سَنَّ العَملَ الطَّوعيَّ لِلأَطبَّاءِ لِيُساهِموا بِذَلِكَ في سَبيلِ وطَنِهِمْ، وفي سَبيلِ خَيرِ أَبناءِ جُلدَتِهِمْ، بَلْ في سَبيلِ الإِنسانيَّةِ جَميعاً امتِثالاً لمبادئِ الدِّينِ الإِسلاميِّ الحَنيفِ، ولِتعاليمِ الرَّسولِ الكَريمِ ﷺ الَّذِي أَرسَلَهُ اللهُ رَحمَةً لِلعالمينَ.

وكانَ لَهُ في دِمشقَ في آخرِ حَياتِهِ مَجلسٌ خاصٌّ لِلأَطباءِ يَشرَحُ لَهُم فيهِ آخِرَ ما تَوصَّلَ إِليهِ عِلمُهُ في مَعرفَةِ خَصائِصِ الأَعشابِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ المُستَخلَصَةِ مِنَ النَّباتِ.

تُوفيَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ في دِمشقَ ودَفِنَ فيها سَنةَ (639) هجريَّةً، وتَركَ العَديدَ مِنَ المؤلفاتِ والمُصَنَّفاتِ في عِلمِ النَّباتِ، ولَكِنْ لَمْ يَصلْنا مِنها إِلَّا النَّذرُ اليَسيرُ.

ومِنْ مُؤَلَّفاتِهِ الَّتِي أَشارَ إِلَيها المُؤرخونَ:

1 ـ كِتابُ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

2 ـ كِتابُ النَّباتِ مُصَوَّرٌ بِالأَلوانِ.

3 ـ كِتابُ الرَّدِّ عَلى كِتابِ التَّاجِ البلغاريِّ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1ـ كيفَ كانَتْ علاقَةُ رَشيدِ الدِّينِ بِسَلاطينِ بَني أَيوبَ؟

2 ـ لِماذا كانَ رَشيدُ الدِّينِ يَخرجُ مَعَ الجيوشِ لِحَربِ الصَّليبيينَ؟

3 ـ أين ولِدَ رَشيدُ الدِّينِ، وفي أَيِّ عامٍ؟

4 ـ عَلى يَدِ مَن اشتَغَلَ رَشيدُ الدِّينِ بِعلمِ النَّباتِ؟

5 ـ مَنْ بَنَى مَدينَةَ صور؟

6 ـ ماذا لاقَى رَشيدُ الدِّينِ بَعدَ أَنْ ذاعَ صيتُهُ؟

7 ـ بِماذا انفَردَ رَشيدُ الدِّينِ عَنْ باقي العُلماءِ؟

8 ـ ما هيَ مُؤلفاتُ رَشيدِ الدِّينِ؟